تاريخ شعراء العربية

شعراء العصر العباسي الأول

رابعة العدوية



إعداد وشرح

لجنة التحقيق في دار القلم العربي

مراجعة وتدقيق

أحمد عبد الله فرهود



منشورات

دار القلم العربي بحلب

الطبعه الأولى

١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م

عنوان الدار

سُورِيَة - حَلَبْ - خَلفَ الفُنْدُقِ السِّيَاحِي

شارع هدى الشِعْرَاوي

هاتف | ٢١٣١٢٩ | ص.ب |٧٨| فاكس ٢١٢٣٦١، ٠٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

مولدها وأسرتها

وُلِدَتْ أمّ الخير رابعة بنت إسماعيل العدويّة في البصرة في مطلع القرن الثاني ، وكانتْ مولاة لآل عتيك ، من بني عدوة القيسيّين ، وكان أبوها إسماعيل فقيراً كثير التعبُّد ، حتى لقبوه بالعابد ، وكان قد وُلد له ثلاث بنات ، ثم رُزقَ الرابعة ، فسمّاها رابعة ، وهي رابعة العدويّة المشهورة ، وهي التي وُلدت وعاشت وماتت ودُفِنَتْ في البصرة ، ولم تتزوَّجْ ، بل عاشت بتولاً وتُوفيت عذراء ، متفرّغة للعبادة .

راوية المؤرخ الكبير فريد الدين العطّار عن ولادتها

(من كتابه تذكرة الأولياء)

((في الليلة التي أتتْ فيها رابعة العدوية إلى الدنيا لم يكن في بيت أهلها شيءٌ ممّا يصلح للوليد عند ولادته ، فقد كان أبوها فقيراً ، حتى إنّه لم يكن ثمّة مصباحٌ للنور ، ولا نقطة سَمْن للخلاص ، ولا قطعة من قماش يُلَفّ بها للمولود ، وكان له ثلاثُ بنات ، فسميّت رابعة لأنها رابعتهنّ .

وكان الأبُ الصّالح قد عاهدَ الله ألا يطلبَ من عبْد من عباده شيئاً ولكنّه ذهب استجابة لضراعة زوجه ، وشفقةً على وليدته ، ذهب يطرقُ أبوابَ جيرته يلتمس عَوْناً ، ولكن الأبواب صمتتْ ، فلم يستجبْ له من ورائها أحد .

ورجع الأب حزيناً أسِفاً ، وبكت الزوجة ، وأقبل الأب على صلاته وتسبيحه ، فأخذه النوم ، فرأى النبيَّ صلوات الله وسلامه عليه في منامه ، فقال له النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم : لا تَحْزَنْ فهذه الوليدةُ سيّدة جليلة ، وإن

سبعين من أمّتي ليرجون شفاعتها . ثم أمره صلوات الله عليه بالتوجُّه إلى عيسى ابن زادان أمير البصرة ، ويكتبَ له رقعة يخبره فيها أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم زاره في المنام ، وأمره أن يذهب إليه ، وأنْ يقول له : إنك تصليّ مئة ركعة كل ليلة ، وفي ليلة الجمعة أربعمئة ، ولكنّك في الجمعة الأخيرة نسيت ، ألا فلتدفعْ أربعمئة دينار لصاحب هذه الرقعة كفّارة عن هذا النسيان .

وفي الصباح كتب والد رابعة الرسالة التي أمر بكتابتها ، وأرسلها عن طريق الحاجب إلى الأمير ، فلمّا قرأها الأميرُ أمر بإعطائه أربعمئة دينار فوراً وإحضاره إليه ، ثم راجع نفسَه في الحال ، وقال : بل أنا أذهب إليه ، إجلالاً لمن أرسله ، وسأتولّى بنفسي العناية بابنته الجليلة القدر)) .

نشـأتُهـا

كانت رابعة منذ طفولتها ذكيّة تقيّة ، حفظت القرآن الكريم ، وكانت تواظبُ على صلاتها ، وتتفتّح في نفسها أزاهير الورع ، فتقول لأبيها : يا أبتِ لستُ أجعلُكَ في حلٍّ من حرامٍ تطعمُنِيه.. إنها لا تسامح إن هو أذاقها من طعام حرام لم يكسبْه من طريق حلال ، وسُرّ أبوها بما قالت غَرْسَةُ يده ، ونبتة سقايته فسألها ممتحناً : أرأيْت يا رابعة إنْ لم نجدْ إلا حراماً ؟ فقالت : أن نصبرَ يا أبتِ في الدنيا على الجوع خير من أنْ نصبر في الآخرة على النار .

ويُتوفّى أبواها الفقيران ، وليس لها أخٌ من الذكور ، وكانت قد نزلتْ في البصرة مجاعة ، فسرقها أحد اللصوص ، وباعها في سوق النخاسة رقيقةً بستّة دراهم ، فصارت في حَوْزة تاجر لم يكن يرحم ، فاعتصمت بإيمانها ، وتجمّلتْ بالصبر ، ولاذتْ بالعبادة ، وأكثرتْ من التهجّد ، ولزمت الدُّعاء .

وأرسلُها سيّدها يوماً لقضاء حاجة لـه في السّوق ، فتعثّرت في الطريـق فـانكسـرت ذراعها ، وأصابها إغماء ، فلما صَحَتْ شـرعَتْ تنـاجي ربّهـا : ((رباه قد انكسرتْ ذراعي وأنا أعاني الألم واليُتم ، وسوف أتحمّلُ كـل شيء وأصبرُ عليه ، فهل أنتَ راضٍ عنّي يا سيدي ، إلهي هذا ما أتوق إلى معرفته)) .

تحـررّهـا

بينما كانت رابعة غارقة في مناجاتها ذاتَ مرة إذْ سمعتْ صوتاً يقول : لا تحزني ففي يوم الحساب يتطلّع المقرَّبون في السماء إليكِ ، ويحسـدونك علـى مـا تكونين فيه .

هنالك ازدادتْ حبّاً لله ، وإقبالاً علـى العبـادة . واستيقظ سيّدها ذات ليلة ، فسمع صوت مناجاة حرّة ، فـأخذ يتتبَّـعُ الصـوت حتـى وصـل إلى غرفـة رابعة ، ثم نظر من خِصاص الباب ، فرأى رابعةَ سـاجدةً تصلّـي وتقـول : إلهـي أنتَ تعلم أنّ قلبي يتمنّى طـاعتك ، ونـور عيـني في خدمتـك ، ولـو كـان الأمـر بيدي لما انقطعت لحظة عن مناجاتك ، ولكنّك تركتني تحت رحمة هذا المخلـوق القاسي من عبادك .

وخلال دعائها وصلاتها شاهد قنديلاً فوق رأسها يشعّ نوراً ، فلما كان الصباح دعاها وقال : أيْ رابعة وهبْتُـك الحرّيـة ، فـإن شـئْتِ بقيـت هنـا ونحـن جميعاً في خدمتك ، وإنْ شئتِ رَحلْتِ أنّـى رغبْـتِ فودّعتـه وذهبـتْ وانقطعـتْ للعبادة .

في الطريق إلى الله

أغـــذَّت رابعــــةُ خطاهــا في أقــــدس طريـق ، فهبّـتْ عليهـا نسـائمُ الإيمان ، وزادها ا لله تقوى ، فكانت لا ترفع رأسَها إلى السماء حياء من ا لله عزّ وجلّ ، وكانت تصليّ في اليوم ألف ركعة ، وما أكثرَ ما كانت تقول : إلهي إنْ لم يكن بك عليَّ غضـب فـلا أبـالي ولاذتْ رابعـة بحلقـات المسـاجد ، وطـرق المتصوّفة ، مستفيدة من مواعظ أعلامهم من أمثال إبراهيم بن أدهم ، ومالك بن دينار ، وسفيان الثوريّ ، وشقيق البلخي ، ونهلت من معين الهداية ، وعـاهدتْ ا لله سبحانه وتعالى على أنْ تعيش متحـرّرة مـنْ كـلّ شـهوات الدنيـا . وكـانتْ هذه الصَّالحة تقول : ((لو كانت الدنيا كلُّها لرجل ما كان بها غنياً)) قـالوا : لماذا ؟ قالت ((لأنها تفنى)) .

العذراء البتول الشاعرة

صارت معاني الدين تتغلغل بعناية ا لله في قلبها ، وتنكشف لهـا أحكامـه فخيرُ صلاة مـا كـان في بيتهـا ، فـأوتْ إليـه ، وجعلَتْـه محرابهـا ، ومحـلّ عزلتهـا وخلْوتها ، ومناجاتها ، واضعةً عن كاهلها كل عبء من أعباء الدنيا ، متخلّصة من كل شهوة آثمة أو مُبَاحة ..

لقد أحبّت ربّ العالمين ، جلّ جلاله ، وتجـرّدت لعبادتـه ، وأيقنـت أنّـه أهل أن يعبد طمَعاً برضاه وجنّته ، واتقاءً لعذابه ، حتى لو أنّه عزّوجلّ ما جعـل ثواب المتّقين جنة وعذاب العاصين النّار لكان يستحقّ أنْ يُعْبَـد ، لجـلال وجهـه وعظيم صِفاتِه ، وإحسانه الذي لا يُحَدّ ، وآلائه الغامرة .

مَحَضَتْ رابعة نفسَها لعبادة مُبْدِع الكَوْن ، ربّ الخلائق ، سبحانه واستعاذتْ به من أن تشرد لحظة عن تلكم العبادة ، وتقول : ((اللهم إني أعوذ بك من كل ما يشغلني عنك ، ومن كل حال يحول بيني وبينك)) .

حتى النوم هجرتْهُ ، إلا بُلْغة (١) تلمّ بها : ((وعزّتك وجلالك لا أنام عن خدمتك (أي عن ذِكْرك وعبادتك) لا في ليل ولا نهار ، إلا غلبة (٢) حتى ألقاك)) ((وعزّتك لو طردتَني عن بابك ما برحت عنه لِما وقعَ في قلبي من محبّتك)) .

والتزوّجُ قد يشغل المرءَ عن العبادة شيئاً ما ، وهو حظُوظٌ ، وهي لا تضمن أن توفّق بعابد مثلها يُتيحُ لها فرص المناجاة التي تملكها وهي عَزَبَةٌ عذراء فآثرتْ أن تبقى خِلْوَاً من أعباء المسؤولية الزوجية ، مع أنها تعلم أنها مسؤولية مأجورة يعقبُها الثواب الجزيل .

وازنتْ رابعة إذاً أيُّهما خير : أن تسترفد الثوابَ من باب الذِكْر والمناجاة والنُّسُك (٣) ، أم من باب طاعة الزوج ، ومسؤوليّة البيت ، وأملِ أن تُرْزق ولداً صالحاً يدعو لها في حياتها ، وبعد وفاتها ؟

فوجدت أنَّ طريقة الذِكْر والمناجاة والتفرّغ للنُّسُك أضْمَنُ ، وهي عليه أقْدَرُ ، وله أمْلَكُ ، أمّا الزوج والولد فباب طريقهما ينطوي على مغامرة فما أقلّ الأزواج المتجردين للعبادة الذين لا يستكثرون من الأموال والمكاسب وزينة الدنيا ، وما أكثر الولدان العَقَقة ! .

---

(١) البلغة : ما يكفي لسد الحاجة ولا يفضل عنها .

(٢) غلبة : أي إذا غلبها النوم .   (٣) النسُك : العبادة .

والتزوُّج ليس فرضاً عليها - ما دامتْ ضابطةً لنفسها وميولها ، والعُزوبة ليست حراماً ما دامت مجتنبة كلّ مأثمة ، أو خاطرة ممقوتة ، أو رغبة تنبثق عن غريزة .

ومن هنا أعرضتْ عن الزواج ، وكتبت إلى أحد خاطبيها وكان قد عرض عليها أنّه يكسب كل يوم ثمانين ألف درهم ((أما بعد ، فإن الزهد في الدنيا راحة للبدن ، والرغبة فيها تورث الهمّ والحزن ، فهيّىء أمرك ، وقدّمْ لمعادك ، وكن وصيَّ نفسك ، وصُم الدهر ، واجعلْ فطرتك الموت . وأما أنا فلو خوّلني (١) الله أمثال ما خوّلك وأضعافه ما سرّني أن أشتغل عن ذكر الله طرفة عين ، والسلام)) .

ملايين النساء يتزوّجْنَ ، فهل من ضيْر أن تتسامى إحداهن إلى مقام تشبه فيه الملائكة ، فيلَذّها الخلوة ، وتأنس بذِكْر الله ، وتسعد بحبّه ، وتهيم بجلال قُدْسه ، والفناءِ في طاعته والأمل بوصاله ؟ تقول :

راحتي يا إخوتي في خلوتي — وحبيبي دائماً في حضرتي
لم أجدْ لي عن هواه عِوضَاً — وهواه في البرايا مِحْنَتِي
حيثما كنتُ أشاهدْ حُسنَهُ — فهْوَ محرابي ، إليه قِبلتي (٢)
إنْ أمتْ وَجْداً وما ثَمَّ رضا — واعنائي في الورى وا شِقْوتي (٣)
يا طبيبَ القلب يا كلّ المنى — جُدْ بوصْلٍ منك يشفي مُهْجَتِي

---

(١) خوّلني : أعطاني . (٢) أشاهد : فعل مضارع مرفوع ، وسُكّن لضرورة الشعر .

(٣) ثَمّ : هنالك . إنْ ماتتْ في حبّها لخالقها عزّوجلّ من دون أن تحظى برضاه فهي المعذّبة الشقيّة .

يـا سـروري وحيـاتي دائماً نشـأتي منـك وأيضـاً نشـوتي
وهجـرتُ الخلقَ جمعاً أرتجي منـك وصـلاً فهـو أقصـى منيتي

تقشّـفهـا

كان المسلمون يلمسون صـدق هـذه المتصوّفـة ذات الهمّـة العاليـة الفـذّة فينهالون عليها من عطاياهم ، فما أكثرَ ما كانت تعتـذر عـن قَبولهـا ، وتكتفـي منها بما تعيش به عيشةَ كفاف ، أو تبيت يطعمها الغنيّ ويسْقيها .

وكانت تنام على حصيرة بالية ، وكان موضع الوسادة قطعة مـن الآجـرّ وكانت تشرب من إناء مكسور ، وتقطع لياليها صلاة وتهجّداً وتبتّـلاً ومناجـاة وتقول :

وزادي قليلٌ ما أراه مبلّغـي أللزّاد أبكي أمْ لطول مسافتي ؟
أتحرقني بالنار يا غايةَ المنى فأين رجائي فيك أين مخافتي ؟

وكانت تعلم أنهـا لـن تـأخذ معهـا مـن هـذه الدنيـا إلا عملهـا وكفنهـا فكانت تحمل كفنها معها أينما ذهبت ، وتعلّقه على مِشْـحب في منزلهـا ، وهـو عبارة عن عباءة من الصوف الأسود .

وكانت تقول : ما سمعت الأذان إلا ذكـرْت منـادي يـوم القيامـة ، ومـا رأيت الثلج إلا ذكرت تطاير الصحف ، وما رأيت الجراد إلا ذكرتُ الحشر .

هكذا حتى الرمق الأخير

عاشت رابعة ما يناهز الثمانين ، حتى غدت كالشّنّ (١) ، تكاد تسـقط ولّما دنتْ منيّتُها دعتْ خادمتها عبدة ، وقالت لهـا : لا تُؤْذني (٢) بموتـي أحـداً

---

(١) الشّنّ : القِرْبةُ البالية اليابسة .
(٢) لا تؤذني : لا تخبري ، لا تُعْلمي .

ولفّيني في جبّتي هذه . فلما قضتْ نحبَها كُفّنت بتلك الجُبّة كما أوصت وبخمار صوف كانت تلبسه ، ولم يكن يُرى في بيتها إلا قطعة حصير ومشحب قصب ، وكوز ، ولبد تصلّي عليه وتنام عليه . وكان موتها بحدود سنة / ١٨٠ / هـ .

أحـوال ومقـامـات

مرّت رابعة في حياتها الصوفية بكل الأحوال والمقامات الرّوحيّة من زهد وشوق وأنس وبسط وصبر وشكر ورضا وإلهام وتوبة ويقين .

والحال شيء عارض غير مقيم . وهو موهبة تُمْنح ، أما المقام فهو تمكين وتثبيت ودوام ، ولا يُنال إلا بالجهاد والعمل المتواصل على النهج القويم .

وبين كل حال وحال ، وتنقُّل من مقام إلى مقام ، وتَرَقٍّ في عالم الروح تُعْهَدُ عنها أقوال مأثورة مشهورة ، فتقول : ((أتحمّل كل ألم ، وأصبر عليه ولكنّ عذاباً أشدّ من هذا العذاب يؤلم روحي ، ويفكّك أوصال الصبر في نفسي منشؤه ريب يدور في خلَدي : هل أنت راضٍ عني ؟ تلك غايتي)) .

هذه الكلمات منسوبة إليها وهي صغيرة أسيرة ، وقد منّ الله عليها بحياة الحريّة وهي في الثانية عشرة أو بعدها بقليل ، فذهبت إلى الصحراء لتنعَم بحياة ((الخَلْوة)) ثم رجعت إلى البصرة ، لتبدأ مسيرتها في تعليم منهج التصوّف مقبلةً على الله ، مُؤثرةً له على مَنْ عداه ، تبتغي أنْ ينكشف عن قلبها الحجاب وتصل إلى الله . وتقول ((يا ربّ اجعل النار لأعدائك ، والجنّة لأحبابك وأما أنا فحسبي أنت) وقالت عبدةُ وهي التي لازمت رابعة طوال حياتها : كانتْ لرابعة أحوال شتى ، فمرّةً يغلبُ عليها الحبّ ، ومرّة يغلب عليها الأنس ، ومرّة يغلب عليها الخوف ، ومرّة يغْلب عليها البسط فسمعتها في حال الحبّ تقول :

حبيبي ليس يعدلُه حبيبٌ — ولا لسواه في قلبي نصيبُ
حبيبي غابَ عن بصري وشخصي — ولكنْ في فؤادي ما يغيبُ

وسمعتها في حال الأنس :

إني جعلتُك في الفؤاد محدثي — وأبحت جسمي من أراد جلوسي (١)
فالجسم مني للجليس مؤانسي — وحبيب قلبي في الفؤاد أنيسي

وسمعتها في حال الخوف :

وزادي قليل ما أراه مبلّغي — أللزاد أبكي أم لطول مسافتي
أتحرقُني بالنارِ يا غايةَ المنى — فأين رجائي فيك ، أين مخافتي ؟

وسمعتها في حال البسط تقول :

يا سروري ومُنْيتي وعمادي — وأنيسي وعدّتي ومُرادي
أنتَ روحُ الفؤادِ أنتَ رجائي — أنتَ لي مؤنس وشوقُكَ زادي
أنتَ لولاكَ يا حياتي وأُنْسِي — ما تَشَتَّتُ في فسيح البلادِ
كم بدتْ منَّةٌ وكم لكَ عندي — من عطاء ونعمةٍ وأيادِ
حبُك الآنَ بغيتي ونعيمي — وجلاء لعين قلبي الصادي (٢)
ليس لي عنك ما حييت بَراحٌ — أنتَ منّي ممكّنٌ في السَّوادِ (٣)
إنْ تكنْ راضياً عليَّ فإنّي — يا مُنَى القلبِ قد بدا إسعادي

---

(١) تجالس الناس فتحضُر بجسمها ، وتناجي الله فتحضُر بروحها وقلبها وسرّها .

(٢) الصادي : العطشان .

(٣) برَاح : زوال . ممكّن : متحكّم متمكّن .

فإذا انتشتْ رابعة بـالرحيق المختـوم ، مـن ينـابيع السَّناء ، سَمَتْ محلّقةً لترسل البصر خاطفـاً إلى الحقيقـة المجرَّدة ، فـترى الكـونَ كلَّـه في حدَقـة عينهـا المبصرة ، أو ببصيرة قلبها المجلوَّة ، شيئاً هيّناً لا وزن له ولا خطر فترسـل لحنهـا البديع :

فليتَك تحلو والحياةُ مـريـرةٌ ... وليتك ترضى والأنام غِضابُ
وليت الذي بيني وبينك عامرٌ ... وبينـي وبين العالمين خَرابُ
إذا صَحَّ منكَ الوُدُّ فالكُلُّ هيّنٌ ... وكلُّ الذي فوق الترابِ ترابُ

الخمرة الصوفية

هامت رابعة بحبّ ربّ العالمين ، وأبتْ أن تركن إلى أي شـيءٍ مـن دنيـا يشغلها عن ذِكْرِ الله ، وتسبيحِه ، وحمده ، وتمجيده ، والتفكّر في جميـل صُنْعه لقد عاشت حياةً خاصّة كانتْ معها بين الناس ، ولكنْ ليس لها اهتمامات النَّاس وهذه الغيبوبة عن واقع المادّة والحسّ هي بمثابة سُكْر ، ودخول في ((لا وعي)) عمّا حولها ، وهو المراد من الخمرة الصوفيّة .

فرابعة ما ذاقت أمّ الخبائث في دنياها قطّ ، إنّمـا شـغلها حبّهـا لله تعـالى عن كل شيء ، وسئلت رابعة كيف رأيت المحبّـة ، فقـالتْ : ((ليـس للمحـبّ وحبيبـه بَيْنٌ ، إنـما هـو نطقٌ عـن شـوق ، ووصـف عـن ذوق ، فمـن ذاق عرف ، ومن وصف فما اتصف ، وكيف تصف شـيئاً أنـت في حضرتـه غـائب

وبوجوده ذائب ، وبشهوده ذائب ، وبصحْوك منْه سكران ، والمحبّة بدولتها الصارمة في القلوب حاكمة :

كأسي وخمري والنديم ثلاثةٌ وأنا المشوقةُ في المحبّة رابعة
كأس المسرّة والنعيم يديرُها ساقي المُدامِ على المدَى متتابعةْ
فإذا نظرتُ فلا أرَى إلا له وإذا حَضرْتُ فلا أُرَى إلا معهْ
يا عاذلي إنّي أحبُّ جمالَهُ تاللّه ما أنني لعذلكَ سامعة
كم بتُّ من حرقي وفرط تعلُّقي أُجْري عيوناً من عيوني الدامعة
لا عَبْرَتي ترقا ولا وَصْلي له يبقى ، ولا عيني القريحة هاجعة

العشق الإلهي

إنَّما العشق الخالدُ للحيّ الباقي ، السرمدي الأبديّ ، مبدع الكون والتعلّق بما سواه فانٍ ، إنّها تحبّ الله عزّوجل ، وتُحبّ حبَّها لله ، وتهوى هذه الطريقة القائمة على حبّ الله ، وتطمع أنْ تحظى برؤيته جلّ جلاله في الآخرة وأن تكون مشمولة فيمن قال الله عزّوجلّ فيهم : ﴿ وجوهٌ يومئذ ناضرة . إلى ربِّها ناظرة ﴾ قالت رابعة :

أحبُكَ حبين حبَّ الهوَى وحبّاً لأنّك أهل لذاكا
فأمّا الذي هو حبّ الهوى فشغلي بذكرك عمّنْ سواكا

وأمّا الذي أنتَ أهلٌ له — فكشفكَ لي الحجبَ حتى أراكا

فلا الحمد في ذا ولا ذاكَ لي — ولكنْ لك الحمدُ في ذا وذاكا

وربما كان المرادُ من قولها ((حبّ الهوى)) حبَّ الله ، لإحسانه إليها وإنعامه عليها بحُظوظ العاجلة ، ((وبحبّه لما هو أهل له)) الحبّ لجماله وجلاله الذي انكشف لها ، وهو أعلى الحبَّيْن ، وأثبتُهما ، وأدومُهما .

أو ربما كان المرادُ من قولها ((حبّ الهوى)) الحبّ القائم على مشاهدة اليقين ، وبذلك لا يتعلّق بالنِّعَم الدنيوية التي تُساق إليها ، وأنواع الإحسان إليها على نحوٍ لو قلّت هذه النِّعم ، وتلك الأنواع من الإحسان لقلّ حبُّها أو احتُمل أن يقلّ حبُّها ، شأن ضعاف الإيمان ، وإنما يتعلّق بيقين راسخ من طريق العيان والمشاهدة ، وهو يقين جعلها تتقرّب منه جلّ جلاله ، وتهرب إليه ، وتفرغ قلبها إلاّ من ذكْره ، وحبّه .

وأمّا الحبّ الذي هو أهل له فهو حبّ التعظيم والإجلال لوجه الله العظيم ذي الجلال والإكرام .

ثم ترى أنها مع ذلك لا تستحقّ على هذا الحبّ ولا تستأهل أن تنظر إلى ربّها في الآخرة ، لأنّ حبّها لله تعالى لا يوجب ذلك إيجاباً ، بل على العكس يحمّلها تبعاتٍ وأعمالاً لا تطيقها ، ولا تستطيع أن تقوم بحقوقها ، ولن ندخل الجنّة بما نقدّم ، إلا أن يتغمّدنا الله برحمته ، فتفضّل الله عزّوجلّ بفضل كرمه ، فأراها وجهه الكريم في الآخرة ، وربنا أهل الكرم ، وصاحبُ المِنّة وأهل لذاك . وله الحمد على ما حباها من حبّ الطريق الموصل إليه في الدنيا فهو الذي يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ، وله الحمد على منّه في الآخرة .

الخُلّــةُ الحقيقيــة

لم تحبّ من أعلاق الحياة شيئاً ، ولم تعشَق إلا العشق الأجدَى ، والحـبّ الأبقى ، الذي ملكَ عليها مسارب نفسِـها ، وغـاص في أغـوَار روحِهـا ، ومـلأ عليها كلَّ كيانِها ، فإنْ تحدَّثتْ لم تتحدّثْ إلا عن ا لله سبحانه وتعالى ، وذِكْـره وما والاه ، وأخَذَ من ذلك بسبب ، وإنْ صمتتْ كان فِكْرُها في آلاء ا لله وآياته العظمى ، وجلاله الأوفى ، فكلامُها ذِكْر ، وصمْتُها فِكْر ، تقول رابعة :

وتَخلَّلْتَ مَسْلَكَ الروح منّي … وبه ســمّي الخليلُ خليلا

فإذا مــا نَطَقْتُ كنتَ حديثي … وإذا ما سكَتُّ كنتَ الغَلِيلا

الخــاتمــة

ما منْ شك في أنّ من واجبنا أنْ نصون كرامة كل مسلم ، ولا نفرّط به وأن نكون على حذر من خصومه ، ونتبيّن مطاعنهم فيه ، لأن حسن الظنّ بالمسلمين ، وتبرئة ذممهم ، هما المُنْطَلَق ، ولأنّ المشـهورين قـد يـدسّ عليهـم مـا ليس لهم به علم ولا صلة .

ومعروف أن أعلام التصوّف الإسلامي قد وضعوا معياراً مستنيراً لمنتقديهم، ليزنوهم به، وهو شريعة الله، وتبرؤوا - وتبرّأتْ رابعة - من كلّ ما يخالف هذه الشريعة الغرّاء. وإذاً نستطيع أنْ ننفي - على هذا الأساس - كلَّ مَا نُسِب إلى رابعة من أقوال أو أفعال تحادّ الدين الحنيف، أو تخالف منهجه في الترغيب والترهيب، والثواب والعقاب.. فليست رابعة بأوّل من نسب إليه ما لم يقلْه وما لم يفعله، أوَلم يضع الأفّاكون أحاديث على لسان النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم كشَفَها المحدّثون؟ أو لم يجعلوا هارون الرشيد - زوراً وبهتاناً - من أبطال ألف ليلة وليلة؟ أوَلم يشوّه ابن مماتي - لهواه - سمعة قراقوش؟ أوَلم يختلف المؤرّخون في رابعة نفسها: متى عاشت؟ ومتى ماتتْ؟ وأين دُفِنَتْ؟.

لقد حجّت رابعة، ولكنهم زعموا أنها عندما كانت قرب الكعبة أشارت إليها وهي تقول: ((هذا الصنم المعبود في الأرض ...)).

لقد أنكر أهل التحقيق ذلك، ونفَوْا نسبةَ هذا القول إليها، حتى ابن تيمية - وما أشدَّه رحمه الله - قال: ((وأمّا ما ذُكر عن رابعة مِنْ قولها عن البيت: ((إنه الصنم المعبود في الأرض)) فهو كذب على رابعة المؤمنة التقيّة ولو قال هذا مَنْ قال لكان كافراً، يُستتاب، فإنْ تابَ، وإلا قُتل وهو كذب فإن البيت لا يعبده المسلمون، ولكنهم يعبدون ربّ البيت بالطواف به والصلاة إليه)).